التصوير في الاسلام (*)

تطورت دراسة التاريخ واختلفت الغاية المنشودة من هذا العلم لايطمئن ، الناس اليوم إلى ما كانوا يطمئنون اليه بالأمس ، ولايكتفون من التاريخ بسرد الحوادث والوقائع على علاتها دون تحليل أو تعليل . بل يطلبون من التاريخ أن يكون مرآة صادقة وصورة واضحة لكل عصر من العصور ، ترتسم فيها حياة الأفراد والجماعات في شتى نواحيها ، يستوحون منها حقيقة الماضي بأجلى مظاهرها . ولا تحقق هذا الغرض إلا إذا كان المؤرخ منصفاً أميناً . يكتب ماله وما عليه ، متغلباً على الاهواء ومنزهاً عن التضليل ، يروي الرضي والبغيض ، لا تأخذه في الحق لومة لائم . وهكذا يبعث في دراسة تاريخنا حياة جديدة تتفق مع روح العصر وتفكيره . ويعتقد كثير من ادبائنا ومؤرخينا تعذر تحقيق ذلك أو صعوبة ادراكه في كثير من الابحاث التي أغفلها السلف أو لم يفرد لها بحثاً خاصاً في الكتب التي وصلت الينا ، وأظن أن في هذا القول شيئاً من التشاؤم واليأس رغم وعورة المسالك لادراك المطلب . إن السلف قد خلف لنا تراثاً علمياً واسع الارجاء ، غنياً بموضوعاته حافلاً بتنوع أبحاثه ، ولكنه ينقصه الترتيب والتنسيق على النحو الذي نرغبه ، ومع هذا كله فهو أفضل بكثير بتنظيمه ومادته من أي تراث غيره من معاصريهم أو ممن تقدمهم من الأمم وقد أثبتت النتائج التي بلغتها الأمم من أن الصعوبات لم تكن أبداً عقبة في سبيل ادراك الغاية أو بعضها اذا تدرع المرء على تذليلها بالصبر الطويل والدرس العميق . ولو قيس

(*) محاضرة القاها الأمير جعفر الحسني في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١٦ آذار سنة ١٩٤٥ .

ماتوصلت اليه الأمم الغربية في دراسة تاريخها القديم والاعلان عن حضارتها على ضآلة مراجعهم وغموض مصادرهم ، بالحد الذي وقفنا عنده على وفرة ثروتنا العلمية وتنوعها ، لأدركنا مبلغ تواني في اظهار مفاخر ما أهمل من تاريخنا ، وقد سبقنا بعض علماء الامم الغربية الى دراسة تاريخنا القديم والاعلان عن حضارتنا كل منهم حسب غايته وأهوائه . وأخشى ان طالت عنايتهم وبقينا على اهمالنا ان يأتي يوم نأخذ فيه عنهم أخبارنا ووقائع تاريخنا كما نتلقى عنهم بقية علومنا .

انا نعيب على كتبنا التاريخية مانعيبه على كتب التاريخ عند غيرنا من الامم المتقدمة التي اعتمدت التدوين ، وجعلت التصانيف التاريخية أشبه بالملاحم والأساطير ، فهي تكاد أن تكون مقتصرة على أخبار غزوات السلف وفتوحاتهم ، يفاخرون فيها ويبالغون بحوادث القتل والسلب والهدم والكسب . كأن هذه الأعمال هي أشرف مايستشهد به على عظمة مرتكبيها ، وكأن الاسلام جاء يسلب الأمم حريتهم ويغتصب أموالهم . وأصبحت هذه الفكرة عقيدة راسخة عند سواد الأمة ، بل عند أكثر الذين حاولوا كتابة تاريخنا القديم . فقد جعلوا الفتوحات من أبرز موضوعاتهم ، ونلاحظ ذلك حتى في الكتب المدرسية ، وكان لهذا التوجيه أثره السيء في نفوس الجيل الجديد ، يكاد أحدهم لا يعرف من عظمة العرب ومجيد أعمالهم سوى ماتلقنه في المدرسة أو ما استخلصه من كتب التاريخ القديمة والحديثة ، من أن العرب قد فتحوا البلاد ودوخوا الأمصار ، ودكوا العروش وأخضعوا الملوك حتى امتد سلطانهم من غانة في الغرب إلى فرغانة في الشرق .

وأرجوكم ياسادتي أن لاتحملوا قولي هذا على انتقاص هذه الناحية الهامة التي هي أيضاً جزء من مفاخرنا ، بل أريد أن نظهر جميع محاسن حضارتنا ولا نهمل ناحية منها . ولو اقتصرنا فقط على ماجاء في كتب التاريخ وأخذناه على علاته لصعب على الجمهور ادراك حقيقة حضارتنا والغاية من فتوحاتنا ، وأخشى أن لايختلف حكم الاجنبي وذوي العقائد المريضة في فتوحات العرب ،

عما تصوره نحن من غزوات اتيلا وهولاكو وتيمورلنك الذين أفسدوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، ولم يخلفوا حيثما حلوا سوى الخراب والدمار ، دون أن يبررها هدف شريف أو غاية مثلى ، بل دفعتهم اليها غرائزهم الهمجية في القتل والسلب . ولو لم يتصل بنا بقية من تراث السلف الصالح — وهي أبلغ شاهد على حضارة العرب — لضعفت حجتنا وكسدت بضاعتنا ولما وجدنا مايرد به عادية المفترين . فينبغي علينا إذاً أن لا نحصر جهودنا بدرس الفتوحات والغزوات فقط بل الواجب علينا أن نعير ما أهمل من بقية مظاهر حضارتنا الاهتمام اللائق بها ، ليصبح تاريخنا وحدة غنية بعادتها سليمة من الشوائب ، تظهر للعالم حقيقة عظمة العرب في جميع أطوارها سياسية كانت أو عسكرية ، اجتماعية أو اقتصادية ، علمية أو فنية ، وعندئذ نستطيع أن نقيم الدليل للذين طغى الشك في قلوبهم على اليقين ، بان الفتح الاسلامي هو أنبل فتح عرفه التاريخ ، جنى العالم من ورائه أطيب الثمرات ونهض بالمدنية إلى أرفع الدرجات . ويجب علينا لكي نبلغ هذه الغاية ونعد لها العدة الكافية أن نقطع مرحلة طويلة شاقة ، لانه لم يزل في تاريخنا ثغرات كثيرة ومجاهل عز على الرواد ادراكها ، واستعصى على الباحثين حقيقة أمرها . إن تاريخنا مشتت في تضاعيف الاسفار ، مبعثر في كتب التاريخ والادب ، ودواوين الشعر والرحلات ، وتصانيف الحديث والتفسير ، والتراجم والمعاجم وفي غيرها من المصادر الاجنبية القديم منها والحديث ، ولا مندوحة للباحث من الاستعانة بها جميعاً والرجوع اليها اذا أراد أن يلم بموضوعه ، ولا يتهم بالاهمال ولا يرمى بالتقصير في التحقيق والاستقراء . لانكر أن مثل هذا العمل الشاق لا يتيسر لفرد من الأفراد مهما اتسع علمه وطال عمره ، بل هو عمل جماعات يتوزعون أفرادها العمل بطريق التخصص فيكونون من هذه الدراسات سلسلة أبحاث ينسج منها تاريخنا القومي بمعناه الصحيح .

ان الحضارة العربية هي من نعم الله ماثلة للعيان رغم شبحها الضئيل

الذي يتراءى لنا من خلال سطور كتب التاريخ . ولو كان الحكم يصح بالقياس والاستنتاج فقط لجزمنا أن الحضارة الاسلامية قد بلغت ولاشك ذروة الكمال في جميع نواحيها . والا لما كتب لها البقاء طويلاً ، رغم المصائب والكوارث التي توالت على البلاد الاسلامية وتضافر أعداؤها للقضاء عليها .

ولا تخلو الامم الاسلامية من الشعوبيين ممن زاغ بصرهم أو في قلوبهم مرض يجاهرون بعورات تاريخنا ، ويشنعون بالحضارة العربية وينكرون عليها فضلها . فيتعمدون التضليل ليفسدوا على الناس عقيدتهم القومية وليضعفوا في نفوسهم الايمان بمحاسن حضارة السلف ومدنيتهم . ولايمكن القضاء على مثل هذه الدعايات بالتهويش والتهويل بل علينا أن نقرع الحجة بالحجة فنرد فريتهم ونزيف أباطيلهم بالبينة والبرهان .

ومن المسلم به أن كل حضارة لا تذكي قرائح أبنائها ولا ترهف سمعهم ولا تصقل خيالهم ولا تهذب همجية طبائعهم هي مدنية بتراء وغير ناضجة ولا يصح أن يطلق عليها اسم حضارة أو مدنية . لان الشعر والموسيقى والتصوير وكل ضروب الفنون الجميلة هي صفة ملازمة أبداً للحضارة الرئيسية ومقياس لها . والشعر هو أخصب مادة أنتجتها قرائح العرب ، ومعينه عندهم لاينضب ، وقد وفاه الادباء الشيء الكثير من حقه في دراساتهم في الماضي والحاضر . ولم تكن عناية المسلمين بالموسيقى أقل منها بالشعر فكانت صناعة رائجة برعوا فيها وتصرفوا في أفانينها ، ومع هذا يعوزها الدراسات العلمية لندرك مبلغ ماوفقوا اليه في هذه الناحية . وأما التصوير فكنا نجهل عنه الكثير واليسير . وننكر على العرب وغيرهم من المسلمين أي محاولة في هذا السبيل ، وسلمنا به بدون جدل لاعتقادنا أنه ينافي الدين الاسلامي ولا يتفق مع تعاليمه ، وحالت هذه العقيدة دون أي بحث حول هذا الموضوع . وبقي الناس كذلك لايجسرون طرق بابه ، الى أن قام منذ نصف قرن فريق من مستشرقي الغرب وعلماء الآثار منهم بمعالجة موضوع الفنون الجميلة عند

المسلمين فتوصلوا بدراساتهم الى نتيجة تفوق ما كان مقدراً لها من النجاح فصنفوا عشرات المجلدات في مختلف اللغات تشهد جميعها بفضل العرب وعنايتهم بفن الزخارف والريازة ، مدلين ببراهين عديدة وشواهد كثيرة ، ورغم تقديرهم مواهب العرب الفنية فقد استبعدوا أن يكون لهم نصيب في النحت والتصوير ، وغمزوا قناة الدين الاسلامي الذي حال دونهم ودون التصوير ، مستشهدين بالاحاديث النبوية الشريفة التي حرمت على المسلم صناعة الصور والتماثيل ونهته عن اقتنائها . وقد زادت قناعتهم بما عرفوه من تعصب السواد الاعظم من المسلمين لاسيما رجال الدين ضد التصوير . وفقدان أي بينة تنقض هذا التعصب أو تنفيه . وأين السبيل لمن أراد رد قولهم وقتئذ والنص حاضر والشاهد غائب . غير أن العلم لا يعطي كلمته الاخيرة في مسألة من مسائله . ولكن لابد أن تظهر الحقيقة ولو بعد حين ، فيصبح وهماً ما كنا نعتقده حقاً ، ومن المؤسف أن نرى بعض المسلمين يؤخذون بمثل هذه الاقاويل . ولم يتورع أحدهم من أن يتهم : « الروح الاسلامية بعجزها عن انشاء فن مها أنفقت من جهود ومهما بذلت في هذا السبيل محاولات . لأن ذلك مناف لروحها . وان مايسمونه فناً اسلامياً ليس خليقاً مطلقاً بكلمة فن وخير مايوصف به أنه « تزويق وانهم (أي العرب) لم يعنوا بهندسة البناء ولا بالنحت ولا التصوير . »[1]

وقد جاءت المكتشفات الاثرية الاخيرة في البلاد الشامية والعراقية والابحاث العلمية الحديثة التي أثارتها خير شاهد على فساد ماذهبوا اليه في الماضي . واثبتت ببراهين جديدة أن النهضة الاسلامية كانت شاملة ، تناولت جميع نواحي الحضارة البشرية في العلوم والفنون على السواء كغيرها من الحضارات التي سبقتها ، ونزهت الشريعة الاسلامية من أن تكون عثرة في سبيل تقدم العقل البشري ونمو مواهبه الطبيعية .

(١) عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني ص ٥٥و١٦ .

وقد ابتلى بحث التصوير عند المسلمين بالامتهان أكثر من أي بحث غيره ، فلا نجد في كتبنا القديمة أي اشارة اليه ، اللهم الا ما اقتصرت عليه الكتب الدينية في كراهيته وتحريمه ، ولم يتوسع الفقهاء والمحدثون في بحث هذه الكراهية والتحريم . ولم يبينوا لنا وجه الحكمة في ذلك كما فعلوا في بحث غيرها من نواهي الشرع .

وقبل أن نبحث في تحريم التصوير وتعليله وما ذهب اليه بعض العلماء في جوازه . لابد لنا أن نبحث أولاً مبلغ تأثير هذا النهي في العالم الاسلامي ومقدار تمسكهم به في صدر الاسلام ، ثم نبحث عن استنكارهم لمن خالف هذا الرأي وشذ عنه . وذلك على ضوء الواقع والمصادر الاسلامية القديمة وما اتصل بنا من المكتشفات الاثرية الحديثة .

وقد نقل الينا السلف بان العرب في الجاهلية قد زينوا البيت الحرام وجدرانه بصور الانبياء وصور الشجر والملائكة ، من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن وهو يستقسم بالازلام ، وصورة عيسى وأمه عليهم السلام ، ولما كان يوم الفتح : « دخل رسول الله ﷺ البيت فأرسل الفضل بن العباس ابن عبد المطلب فجاء بماء زمزم ، ثم أمر بثوب ، فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور فطمست ، وقد وضع الرسول ﷺ كفيه على صورة عيسى وأمه وقال : امحوا جميع الصور إلا ماتحت يدي . فرفع يديه عن عيسى وأمه ونظر الى صورة ابراهيم فقال : قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازلام ومالابراهيم والازلام »[1] .

وروي عن داود بن عبد الرحمن بن أبي جريج قال : « سأل سليمان بن موسى الشامي عطاء بن أبي رباح وأنا أسمع : أدركت في البيت تمثال مريم وعيسى؟ قال : نعم أدركت تمثال مريم مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً ، قال : وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم عليها السلام في العمود الذي يلي

(١) أخبار مكة للازرقي ج (١) ص : ١٠٤ .

الباب . قال ابن جريج فقلت لعطاء : متى هلك ؟ قال : في الحريق في عصر ابن الزبير . »(١)

وروي عن أسماء بنت شقر (؟) : « ان امرأة من غسان حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة صاحت : بابي وأمي انك لعربية . فأمر رسول الله ﷺ أن تمحى تلك الصور الا ما كان من صورة عيسى ومريم »(٢)

وفي حديث عن عائشة رضي الله تعالى عنها . انها قالت كنت ألعب مع الجواري بالبنات عند رسول الله ﷺ (٣) والبنات هي التماثيل الصغار التي يلهو بها الاطفال .

ونقل لنا المقريزي أن عمر رضي الله عنه ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد في بعضها « الحمد لله » وفي بعضها : « محمد رسول الله » وفي بعضها : « لا اله إلا الله وحده » وعلى آخر « عمر »(٤) وقد ضرب معاوية دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً (٥) وفي أكثر المتاحف نماذج من هذه النقود يتفق شكلها مع هذا الوصف وتؤيد قوله .

وكان بعض العرب في صدر الاسلام يصورون في بيوتهم للتطير . وكان عبيد الله بن زياد صور في دهليزه كلباً وأسداً وكبشاً . وقال : كلب نابح وكبش ناطح ، وأسد كالح (٦) . وروي عن هلال عن عبد الله بن جعفر ابن عمرو عن بشر بن حيان قال : كنت عند عبد الله بن محمد بن عقيل . فدعا

(١) اخبار مكة للازرقي ج (١) ص : ١٠٦ .
(٢) اخبار مكة للازرقي ج ١ ص ١٠٧ .
(٣) حسن الاسوة لمحمد صديق خان حسن خان بهادر ص ٣١٩ ، وتاج العروس مادة (بنى) .
(٤) رسالة النقود للمقريزي طبعة ماير .
(٥) رسالة النقود للمقريزي ص : ٣ .
(٦) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٤٧ ،

بخاتم فخضخضه في الماء . فقلنا ماهذا ؟ قال : هذا خاتم كان لرسول الله ﷺ فاذا فصه حجر فيه نقش كتابة وتمثال (١) .

ونقل لنا الطبري في تاريخه : أن سعد بن أبي وقاص عندما دخل بجيشه المدائن بعد وقعة القادسية في سنة ١٦ هـ . نزل فيها بالقصر الأبيض ، واتخذ الايوان مصلى ، وان فيه التماثيل جص فما حركها(٢) ، وزاد في موضع آخر بقوله : ولما دخل سعد المدائن فرأى خلوتها وانتهى الى ايوان كسرى فصلى فيه صلاة الفتح واتخذه مسجداً وفيه التماثيل الجص ، رجال وخيل ولم يمتنع ولا المسلمون لذلك وتركوها على حالها .(٣)

وكان المسلمون يتمثلون باحاديثهم الصور ويستشهدون بمحاسنها . وقد جاء في شمائل النبي ﷺ : كأن عنقه جيد دمية . والدمية هي الصورة المصورة شبه بها لتفوق صنعتها والمبالغة في حسنها .

وذكر ابن سعد في طبقاته : « ان نساء النبي ﷺ تذاكرن عنده كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرن من حسنها وتصاويرها . وكانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة (٤) .

وقيل للأوسية وهي امرأة حكيم من العرب بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أي منظر أحسن . فقالت : قصور بيض في حدائق خضر . فانشد عمر بن الخطاب لعدي بن زيد :

كدمي العـــاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير(٥)

والدمي هنا هي التماثيل .

ولا يسعنا ياسادتي أن نستخف هذه النصوص التي أتينا على ذكرها

(١) تاريخ الرقة للقشيري مخطوط الظاهرية .
(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٣ .
(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٤ .
(٤) طبقات ابن سعد القسم الثالث ج ٢ ص ٣٤ .
(٥) كتاب الكامل للمبرد ج ١ ص ٤٦٠ .

وتنكر أهميتها لوجود نصوص غيرها تنقضها . وقد جاءت المكتشفات الاثرية في السنوات الاخيرة مؤيدة لتلك النصوص وأدعمت الرأي بتسامح المسلمين بصورة عملية بأمر التصوير حتى في صدر الاسلام . وانهم لم يكونوا وقتئذ ينظرون لهذا النهي نظر المتأخرين فيه مع انهم أحدث عهداً بالاسلام وأوسع فهماً لتعاليمه وبينهم الخليفة والصحابي والتابعي .

ومن أهم هذه المكتشفات نماذج كثيرة لنقود ضربت في عهد الخلفاء الراشدين كعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين وبعض هذه النقود على الطراز البيزنطي والآخر على الشكل الساساني وجميعها مصورة . كما أنه عثر على نقود ضربت في عهد عبد الملك بن مروان عليها تمثاله متقلداً سيفاً (١).

واكتشف الرحالة التشكوسلوفاكي موزيل سنة ١٨٩٨ خربة قديمة في بادية الشام الجنوبية على نحو (٥٠) ميل شرقي عمان ، وهي بقية حمام لقصر المدرس أثره . ويعرف هذا البناء بقصير عمرة . وأعجب مافيه رسومه الزاهية الملونة بالاصباغ التي تزين جدرانه وسقوفه . وهي مجموعة صور أشخاص وطيور وحيوانات . أهمها صورة خليفة على عرشه ، ومشاهد صيد وقنص وصور راقصات عاريات متهتكات ، وصورة قبة فلكية وأبراجها ، وغير ذلك من الصور الرمزية . وقد أثار هذا الاكتشاف اهتمام علماء المشرقيات والآثار في الغرب ، وطال الجدل فيما بينهم ، نسبه بعضهم للعهد الاموي . وأنكر البعض ذلك وأرجعه الى ماقبل الفتح مستنتجاً ذلك من وجود الصور فيه وقد نهى عنها الاسلام . ولكنهم مالبثوا أن قنعوا بحجج الفريق الاول وسلموا معهم بان هذا العمل صنع في أوائل العهد الاسلامي واعتبروه شذوذاً وخروجاً على الاسلام . بل بادرة فريدة يصعب تعليلها أو التوفيق بينها وبين المتعارف من التعاليم الدينية الاسلامية . وانه لايصح اتخاذ هذه الظاهرة سابقة يبنى عليها حكم . ورغم كل هذه الاعتبارات فقد جاء هذا

(١) مسكوكات قديمة اسلامية فنالوفي لاسماعيل غالب رقم (٥) .

الاكتشاف حدث جديد وفتح مبين لناحية مهملة من الحضارة العربية بل الاسلامية . وبدأ منذ ذاك التاريخ أفق جديد وميدان فسيح يتبارى فيه الباحثون ليميطوا اللثام عن هذه النقطة الغامضة ببرهان جديد . وهكذا توالت الاكتشافات الاثرية في بلاد الشام والعراق . وعثر على قصر المشتى وهو على بعد (٢٠) ميل جنوب شرقي عمان ، وقد اشتهر أيضاً بزخارفه البديعة وصوره المنحوتة في الحجر . وقد نقلت زخارف جبهة هذا القصر الجنوبية الى متحف برلين حيث أعيد تركيبها فيه . وهي الى يومنا هذا من مفاخر معروضات القسم الاسلامي في هذا المتحف . ونرجو أن يكتب لهذا الاثر الاسلامي النفيس السلامة من الغارات الجوية التي تدمر العاصمة النازية . ثم اكتشف قبل سنوات مضت قصر خربة مفجر على مقربة من ريحا في غور فلسطين وعثروا فيه أيضاً على طائفة كبيرة من تماثيل حيوانات ناطقة وغير ناطقة وطيور وغير ذلك من الزخارف الجميلة . كما اكتشفت مصلحة الآثار السورية في نفس التاريخ قصر الحير الغربي الموجود في بادية الشام بين دمشق وتدمر . وقد نقلت زخارفه الى متحف دمشق لاعادة تركيبها فيه على نحو ما كانت عليه في الاصل . وقد زينت جبهة هذا القصر وغرفه وباحته بانواع الزخارف البديعة صنعت جميعها بالجص . واعجب مافيها تمثال فارس يطارد فريسته ، وتمثال ملك جالس على عرشه ، وتمثال أسد يفترس ظبياً ، وتمثال امرأتين ملونتين بالاصباغ ، احداهما جالسة والثانية مستلقية على ظهرها . ووجد فيه أيضاً عشرات التماثيل أقل منها شأناً ، وزينت جدران بعض الغرف بصور أشخاص ملونة . ورصفت أرض غرف منه برسوم زاهية تمثل سماوة امرأة تحمل بين ذراعيها سلة أثمار وقد التف حول عنقها ثعبان ويكتنفها قنطور سان بشكل ثعبان له وجه انسان ومخالب أسد . والى جانبها صورة مرزبان على جواده بقيافته الفارسية . يطارد ظباء يرميها بسهام صائبة . وهنالك صورة قينتين . الاولى تنفخ بمزمار والثانية تعزف بالعود . وكل هذه الصور دقيقة الصنع لا تكلف فيها ولا جهد . تدل

على مهارة الصانع ومواهبه الفنية وزوقه السليم . وحجم أكثر هذه التماثيل والصور يعادل حجم ماتمثله من أشخاص وحيوانات وطيور ويزيد عليها في بعضها . وقد وضع أكثر هذه التماثيل في أبرز مكان من هذه القصور لايحجبها عن العين حاجب . وتظهر بوضوح للداخل والخارج ولكل عابر سبيل . وقد ثبت بصورة لاتقبل الجدل ان جميع هذه القصور التي أتينا على ذكرها هي من العهد الاموي . وشيدت بعيدة عن المعمور وعلى طرق القوافل عبر البادية لسكنى بعض خلفاء بني أمية كهشام ويزيد والوليد ترويحاً للنفس والتبدي . وهنالك أيضاً عشرات القصور من العهد الاموي تنتظر من يبعثها من تحت الردم لتكشف لنا أسرارها .

ولو أردنا التوسع في البحث عن التصوير في العصر العباسي والفاطمي ومن جاء بعدهم لجمعنا من الشواهد مايكفي مجلداً أو أكثر . وقد جمع العلامة أحمد تيمور باشا جزءاً منها جاءت في مجلد كبير . كما أفرد الاستاذ زكي محمد حسن بحثاً في مجلد عن التصوير في الاسلام عند الفرس وهنالك طائفة من الابحاث في هذا الموضوع مبعثرة في الكتب والمجلات الاجنبية كتبها عمدة من علماء الآثار والمشرقيات تكون بذاتها خزانة كتب محترمة .

أرجوكم ياسادتي أن لايتبادر لأذهانكم بانني أحاول في محاضرتي هذه الزعم بان التصوير عند المسلمين عامة والعرب خاصة كان شائعاً بينهم ومألوفا لديهم على نحو ما كانوا عليه من تقدمهم من الامم الغابرة أو كما هو الحال عند الامم الغربية في عصرنا الحاضر وليس من غرضي أيضاً أن أبحث الامر على طريقة الجدل الفقهي لاقرار قاعدة حاسمة تتخذها حكماً قاطعاً . فهذا من شأن الفقهاء ، بل أبحث هذا الامر على ضوء الواقع والشواهد من شؤون الحياة ، لنرى هل يتفق المبدأان : مبدأ تحريم الصور ومبدأ اجازتها مع التعاليم الاسلامية ولأيهما الرجحان . ولابد لي أيضاً من الرد على من زعم ان الاسلام حال دون ازدهار هذه الناحية الفنية في البلاد التي دانت لسلطانه ، وانه كان العامل القوي الذي قضى فيها على مثل هذه

المواهب الفطرية . فلا نستغرب ان وجدنا فئة ترمي الاسلام بمثل هذه الوصمة الشنعاء ، لانها بنت حكمها على الحضارة الاسلامية على ماوجدتها عليه من الانحطاط في عصرنا الحاضر ، وقد جهل هؤلاء الناس أو تجاهلوا ماضيها الزاهر وتحررها من الجمود . ولايمكن للمطلع المنصف أن ينكر على المسلمين ذوقهم الفني السليم . أما ماأنتجوه من ضروب الزخارف في مختلف أدوار التاريخ تشهد لهم تفوقهم العظيم في ناحية واسعة الافق من الرسم الزخرفي حتى بلغوا فيها حد الابداع ، وعجز غيرهم أن يأتي بمثلها رغم ماهو مشهور عنهم من طول باعهم بالرسم والنحت والتصوير ، وهذه الناحية من التصوير لاتقل أهمية وشرفاً عن رسم ذوات الارواح وتجسيمها ، ولايصح أن يعتبر زهدهم في ناحية من نواحي التصوير ، لأسباب سنبينها ، نقصاً في مواهبهم الفنية وعجزاً في استعدادهم الفطري . لأن من يحسن تصوير أو نقش وردة أو كرمة أو غيرها من الزخارف ويحكم نسجها وتنسيقها لايستعصي عليه أن يصور أو ينحت أي مخلوق آخر . ومع هذا كله لو احصينا ما انتجه المسلمون من صور ورسوم أشخاص وحيوانات في العهد الاموي وقيس بما أنتجه سواهم من أهل الكتاب في مدة قصيرة تماثله ، لوجدنا الانتاج الاسلامي مع حداثة عهده لا يقل عما توصل اليه هؤلاء في كميته وقيمته الفنية .

إن الشواهد التي أوردناها في تسامح المسلمين وخلفائهم وعلمائهم في صدر الاسلام في اتخاذ الصور وعدم استنكارهم لها تحملنا كلها على التردد في تفهم تحريم التصوير والنحت والاسلام بالشكل المطلق الذي أفرغه فيه أئمة الدين والمحدثين فيما بعد عصر التدوين أي في النصف الاخير من القرن الثاني .

جاء الاسلام للقضاء على الوثنيين وعبادة الاصنام كما جاء في كتابه العزيز . وجاءت جميع آيات التنديد بالانصاب والأزلام والتماثيل في سياق كلام النهي عن تكريمها ، والذبح لها ، وعبادتها دون الله ، ولانعرف أي آية تصرح

بتحريم التصوير أو النهي عن اقتناء الصور مجردة عن الوثنية . ومتى زالت العلة زال التحريم ، بل هناك آية شريفة يستنتج منها عكس ما ذهب اليه من حرم التصوير ، فقد خاطب الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام بقوله : «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتكون طيراً باذني[1] » أي أن يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير لتتم معجزته ، ويفخر عيسى عليه السلام في آية أخرى بانه قادر أن يخلق من الطين كهيئة الطير[2] . وأمر الله تعالى الجن أن تعمل لنبيه سليمان ماشاء من محاريب وتماثيل[3] وقال الفراء في قوله عز وجل : « من محاريب وتماثيل » ذكر انها صور الملائكة والانبياء كانت في المساجد ليراها الناس فيزدادوا اعتباراً وفي رواية أخرى عبادة[4].

وجاءت بعض الاحاديث النبوية الشريفة صريحة بتحريم التصوير واقتناء الصور بصورة مطلقة غير أن بعضها قد استثنى ما كان على بساط يداس أو مخدة أو وسادة ونحوها مما يمتهن[5] ، وقال بعض السلف انما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل ، وان تحريم التصوير في الاسلام مقيد اذ يجري حكمه على من صور الله تصوير الأجسام ، فمن صنع لغير ذلك لم يستحق الغضب من الله ووعيده . وقال الفارابي : « ان المصورات شريفة الوقع في الخاطر جليلة النفع للنفس أحياناً . » وقال الجاحظ في كتاب الحيوان : « ان الفنان المسلم اذا تخيل صوراً مستطرفة فكأنه يلمح

(١) سورة المائدة الآية ١١٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٤٩ .
(٣) سورة سبأ الآية ١٣ .
(٤) تاج العروس ولسان العرب مادة حرب .
(٥) صحيح البخاري - كتاب ٤٦ باب ٣٢ و كتاب ٧٧ ب ٩١ قا ٩٢ . وصحيح مسلم - كتاب ٣٧ حديث ٨٥ و ٨٦ قا ٨٨ و ٨٩ و ٩٣ — ٩٥ . وسنن ابي داود كتاب ٣١ باب ٤٥ وسنن النسائي - كتاب ٤٨ باب ١٣٠ . وسنن الدارمي كتاب ١٩ حديث ٣٦ .

بلحظ الغيب الى ما يخلقه الله العلي القدير من أشكال لم يبلغ اليها علم » . وقال الجاحظ في صدد الاسجاع : « وكان الذي كره الاسجاع بعينها وان كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ان كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون اليهم وكانوا يدعون الكهانة .... كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع .... قالوا فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم[1] » وهذا التعليل يصح أيضاً قوله قياساً في النهي عن التصوير ولذلك يرى فريق من المستشرقين وعلماء الآثار أن هذه الأحاديث موضوعة وتسربت للدين الاسلامي في القرن الثاني للهجرة ، أدخلها الذين دانوا بالاسلام من اليهود ، واليهودية أشد الديانات كرهاً للتصوير ، لأن مضمون الأحاديث لا يتفق مع ما اتصل بنا من سيرة الرسول الأعظم وآل بيته والخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين يتسامحهم في قضية التصوير كما ذكرناه سابقاً وما سنورده الآن .

روي أن القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه وهو أحد أعاظم أئمة التابعين قد اتخذ الحجلة (أي الستر) التي في تصاوير القندس والعنقاء وهو ربيب السيدة عائشة الصديقة وأعلم الناس بحديثها وفقهها . وان يسار ابن نمير مولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وخازنه قد استعمل الصور في داره . ورؤيت الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين[2] .

وذكر ابن بطريق أن بطريق الروم في قنسرين طلب الى أبي عبيدة ابن الجراح الموادعة على نفسه سنة حتى يلحق الناس بهرقل الملك ، ومن قام فيها فهو في ذمة وصلح ، فاجابه أبو عبيدة الى ذلك ، فسأله البطريق

(١) كتاب البيان والتبيين ١ : ١١٣ .
(٢) خطط الشام لمحمد كرد علي ٤ : ١١٤ .

وضع عمود بين الروم والمسلمين ، وصور الروم في ذلك العمود صورة هرقل جالساً في ملكه فرضي أبو عبيدة . ومر بالصورة أحد العرب ، ووضع زج رمحه في عين تلك الصورة ففقأ عين التمثال عن غير قصد . فأقبل البطريق وقال لابي عبيدة : غدرتمونا يا معشر المسلمين ونقضتم الصلح وقطعتم الهدنة فقال أبو عبيدة : فمن نقضه ؟ فقال البطريق : الذي ففأ عين ملكنا . فقال أبو عبيدة : ماتريدون ؟ فقال لا نرضى حتى نفقأ عين ملككم . فقال أبو عبيدة : صور بدل صورتكم هذه صورتي ثم اصنعوا بها ما أحببتم وما بدا لكم . فقال : لانرضى إلا بصورة ملككم الاكبر ، فاجابهم أبو عبيدة إلى ذلك فصورت الروم تمثال عمر بن الخطاب في عمود وأقبل رجل منهم ففقأ عين الصورة برمحه . فقال البطريق : قد أنصفتمونا (١) .

ويدلنا كل ذلك على مبلغ تسامح المسلمين في التصوير في صدر الاسلام ، وانهم تنزهوا عن مناهضة الصور والتماثيل ، والاسلام أرفع وأشرف من أن يعبأ بها ، وهي أحط من أن يتخذها الاسلام خصماً يناضلها بعد أن قضى على روح الوثنية في مهدها . وهنالك شواهد عديدة تثبت أن المسلمين لم يتعرضوا في بدء أمرهم بسوء للتماثيل والاصنام التي وجدوها قائمة في البلاد التي دانت لسلطانهم . وأشهرها حكاية سعد بن أبي وقاص مع الصور والتماثيل التي رآها في المدائن ولم يبال لها . وروى ابن عساكر في تاريخه : « أن اسامة بن زيد عامل الوليد على مصر كتب الى الوليد أنه عندنا بالاسكندرية صنماً يقال له شراحيل من نحاس وقد غلت علينا الفلوس فان رأى أمير المؤمنين أن ننزله ونضربه فلوساً ، وان رأى علينا غير ذلك فليكتب الي في أمره ، فكتب اليه لا تنزله حتى أبعث اليك أمناء يحضرونه . فبعث اليه رجلاً أمناء أنزلوه . فضربه فلوساً » .

وقد وصف لنا أوس بن ثعلبة التيمي صورة جاريتين رآهما في تدمر في القرن الاول ، قال فيها :

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي ٤ : ١١٨ .

فتاتي اهل تدمر خبراني ... أمِنّا تسأما طول القيام
قيامكما على غير الحشايا ... على جبل أصم من الرخام

وقد شاهدهما أيضاً أبو دلف في القرن الثالث ووصفها بقوله :

ماصورتان بتدمر قد راعتا ... أهل الحجى وجماعة العشاق
غبرا على طول الزمان ومره ... لم يسأما من ألفة وعناق

ولولا تسامح المسلمين في أمر الصور لما بقيت هذه التماثيل في موضعها معروضة للانظار ويتبارى في وصفها الشعراء . وهذا أبلغ جواب نورده لمن نسب المسلمين تعمدهم تشويه التماثيل والاصنام واتلافها في البلاد التي فتحوها تزلفاً الى الله تعالى . ونبرىء الاسلام من هذه الوصمة التي يحقدها عليه أنصار الفنون الجميلة والآثار القديمة .

والآن بعد أن ثبت لنا بالبرهان تسامح المسلمين في صدر الاسلام في أمر التصوير بأوسع معانيه ، لاسيما في العهد الاموي ، حتى بلغ في النصف الاخير من حكمهم شكلاً لايختلف عما نعرفه عند أعرق الامم في الوثنية إلا أنه كان في الاسلام للمتعة والزينة وكان في الوثنية لاغراض تعبدية دينية . ومن ثم أخذت عناية المسلمين بالتصوير تضعف وتتضاءل ، والتضييق الديني يتزايد الى أن صارت الحالة الى ماهي عليه اليوم . ولذلك لابد لنا والحالة هذه أن نبحث عوامل ازدهار التصوير واجازته في صدر الاسلام ، والعوامل التي قضت عليه وحرمته فيما بعد ذلك .

إن عوامل الازدهار لاتحتاج لبيان ، لانها علة طبيعية لكل مدنية زاهرة وحاجة كامنة في النفوس البشرية ، ولا يتيسر للفنون الجميلة التي هي من المميزات الاساسية لكل حضارة ، أن تجد مرتعاً أفضل من حقل الحضارة الاسلامية في إبان مجدها ، تترعرع فيها وتزدهر في ظلها . طالما لايخشى منها أن تسيء الدين وتعاليمه ، ووحدانية الاسلام أمنع من أن توهنها الخيالات والاشباح وخرافات تكريم الانصاب .

ويعتبر البعض أن العوامل التي قضت على التصوير وحرمته قبل أن

يترعرع في الاسلام هي دخلية على الاسلام ، تسربت اليه من العناصر اليهودية التي دخلت في الدين الاسلامي ، لما هو معروف عنهم من التشدد في تحريم الصور والتصوير تحريماً مطلقاً . فقد جاء في الكتاب المقدس : « لاتصنع لك تمثالاً منحوتاً ولاصورة ما مما في السماء من فوق . ومافي الأرض من أسفل ، ومافي الماء تحت الأرض . »[1] والتوراة هي سلسلة صراع بين الوحدانية والوثنية . ويعتقد فريق آخر أن تخلي الاسلام عن تسامحه هذا كان بعوامل العقيدة المسيحية ، وهو الرأي الذي أرجحه ، لانه يتفق مع المكتشفات الاثرية الحديثة وتاريخ تدوين أحاديث التحريم . ويستغرب المرء لأول وهلة هذا الرأي لما هو معروف عن تسامح النصارى في هذا الشأن وتفاخرهم في تزيين كنائسهم وبيعهم بانواع التماثيل والصور . ولكن قبل أن تظفر المسيحية بهذا التسامح وتنعم به . فقد قام دونها منازعات شديدة بين أبنائها ونشبت حروب دينية هرق في سبيلها دماء كثيرة . وكان المجمع الديني الذي عقد في روما سنة ٣٠٥ م . أول من أعلن تحريم الصور وكانت محاولة فاشلة ولم تترك كبير أثر ، ثم تبعتها محاولة ثانية فلم يكتب لها النجاح أيضاً ، الى أن كانت سنة ٧٢٦م الموافقة لسنة ١٠٨ هـ — أي في ابان العهد الذي ازدهر فيه التصوير عند المسلمين وشاع بينهم وألفوه — بعثت عند النصارى فكرة تحريم الصور واليقونات (Iconoclastie) من مرقدها بعنف وحماس ، وانتقلت من روما الى القسطنطينية حيث وجدت أنصاراً متعصبين ، واعتنق الامبراطور لاون الثالث الملقب بمحطم الاصنام هذا المذهب الجديد وتحمس له ، وفرضه على شعبه وأمر بتحطيم تماثيل القديسين واتلاف صورهم حيثما وجدت . وبقيت الدولة البزنطية متمسكة بهذا المذهب الى القرن التاسع م . وشاع هذا المذهب بين نصارى بلاد الشام ومصر وما بين النهرين وعملوا بتعاليمه وتعصبوا له .

(١) الكتاب المقدس - تثنية ٨/٥ .

ويبدو لنا منذ ذاك التاريخ أي في أواخر العهد الاموي بداء زهد المسلمين باستعمال الصور والرسوم . ولايمكن أن يكون اتفاق ظهور مذهب تحريم الصور عند النصارى واختفاؤها في القصور الاموية ومنشآتهم من قبيل الصدف فقط ، بل أعتقد أن بين هاتين الظاهرتين علاقة وثيقة تسمح لنا أن نجزم أن الأولى هي علة الثانية ، لاسيما متى عرفنا أن جميع عمال البناء وما يتبعه من أقسام الزخارف والتصوير والنحت كانوا أكثرهم من النصارى . وهكذا فقدت تلك البلاد منذ ذاك التاريخ الايدي العاملة التي كانت تصنع المسلمين التماثيل والصور التي اختصوا بها دون المسلمين . لان العرب الفاتحين كانوا الى ذاك الحين يترفعون عن مزاولة مثل هذه الصناعات المبتذلة التي لاتتفق مع كرامة الفئة الغالبة . وليس أدل على ذلك من أن يتخذ الوليد معمار مسيحي لبناء الجامع الاموي ، ويستعين بعمال من الروم لزخرفته وتزيينه ، كما أنه عمد الى عمال من الفرس في بناء المسجد الحرام[1] ولبناء دور معاوية بن أبي سفيان[2]. وقد أيدت الاكتشافات الاثرية الاخيرة أثر الذوق البزنطي المسيحي والفارسي في زخارف القصور الاموية وصورها .

هذا هو ياسادتي العامل الحقيقي الذي قضى على فن التصوير وهو في مهده في بلاد الاسلام لاسيما بلاد الشام ومصر والعراق ، حيث كان للنصارى شأن كبير في أكثر مرافق الحياة . ولذلك نرى بلاد فارس لم تتأثر بهذا التحول السريع كغيرها من البلاد الاسلامية وبقيت على تقاليدها في الرسم والتصوير لان عمالها كانوا من أبنائها ممن توارثوا صنعة التصوير عن أسلافهم المجوس لذلك لم يتسرب اليهم المذهب المسيحي الجديد ولم يظفر بمؤيدين له في تلك البلاد .

فلابد المسلمين بعد أن قضت المسيحية على تصوير الانسان والحيوان

(١) الاغاني ٣ : ٨١ وما بعدها .
(٢) فجر الاسلام لاحمد أمين ١ : ١٤١ و ١٤٩ .

والطير وهي من أهم عناصر الزينة وقتئذ من أن يبحثوا على أفق جديد وناحية فنية غيرها تشبع رغباتهم وميولهم الفنية الفطرية دون أن يستنكرها أحد ، فتوصلوا بفضل مواهبهم الفنية وابداعهم أن يبتكروا فن تزويق جديد استوحوه من طبيعة الاشجار والنبات والهندسة فصاغوا منها مجتمعة أو منفردة فنهم الجديد المعروف اليوم باسم ارابسك (Arabesque) وحظي هذا النوع من الزينة هوى في النفوس واستحساناً من الجميع وعم بسرعة جميع البلاد الاسلامية من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، وتنافس عماله بتنويعه وتنسيقه حتى أصبح الفن القومي الاسلامي الذي لايرضون عنه بديلاً . وهكذا حل هذا النوع الجديد من الزينة محل غيرها من الزخارف وقضى على امكان استمرار تصوير المخلوقات في البلاد الاسلامية والتوسع فيها .

ومما لانشك فيه بان المسلمين قد تأثروا بما شاهدوه من المنازعات في هذا البلد بين نصارى البلاد الاسلامية ومغالاة بعضهم في تكريم الصور عطفوا على حركة تحريم التصوير وساعدوا أنصارها على منكريها . وهذا مما دعى الخليفة يزيد بن عبد الملك أن يكتب في سنة ١٠٢ هـ . الى حنظلة ابن صفوان والي مصر أن يكسر الاصنام والتماثيل فكسرت .(١) وهذا ماحمل بعض المسلمين لحكمة رأوها في التشدد في أمر تحريم الصور أسوة بالنصارى فوضعوا أحاديثاً بهذا المعنى وما أكثر الاحاديث الموضوعة .

ولا أجد أضعف حجة ممن يقولون أن تصرفات خلفاء بني أمية في أمر تسامحهم بالتصوير لايصح أن يبنى عليها حكم في الامور الدينية لما عرف من استهتار بعضهم بأمور دينهم ، ولو سلمنا بقول هؤلاء ، فكيف لهم أن يفسروا سكوت أئمة ذاك العصر عن هذا العمل المنكر بزعمهم ، وبينهم من لا تأخذه في قول الحق لومة لائم كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن البصري وأمثالهم . وكيف يفسرون سكوت أعداء بني أمية الذين أحصوا عليهم أنفاسهم ونددوا بأعمالهم وشهروا بنقائصهم وبالغوا بها ، وافتروا

(١) محاضرات في النصرانية لمحمد أبو زهرة ١٤١ .

عليهم الكذب وقلبوا حسناتهم الى سيئات . ومع هذا لم يتصل بنا استنكار أحد من هؤلاء هذه الناحية ، ولا تعرضوا لها بسوء مع أنها أولى من غيرها بالتشهير ان كانت حقيقة من الكبائر كما يزعمون . يدلنا كل هذا أن تفكير أسلافنا في ذاك العصر كان أوسع في أمور دينهم ودنياهم مما نحن عليه اليوم . يأخذون من الدين لبابه وينفذون الى صميمه ، ويفقهون الاحكام بمعناها لابمبناها . فأدركوا أن النهي عن التصوير وقع لعلة معروفة ، وظرف محدود للقضاء على الوثنية ، ولما رأوا تمكن نور الاسلام في قلوب المؤمنين ، ولم يجدوا مايخشونه منها على الدين ، استباحوا لانفسهم التصوير وأجازوه .

ولايستنكر بعد هذا عناية المسلمين بالناحية الفنية على الشكل الذي بيناه بل الغرابة كلها لو أهملوها وأعرضوا عنها ، لان الفنون الجميلة كما أسلفنا هي نتيجة لازمة لنهضة الأمم ومن أبلغ مظاهرها ومقياس تقدم حضارتها . فهي آخر ماتبلغه الحضارة في إبان ازدهارها . وأول ما تنهار فيها حينما يدب فيها الوهن ويتسرب اليها الانحطاط .

ومهما شاء بعضهم أن يكابروا بالامر الواقع فحجتهم تتضاءل أمام شهود الحال والبينات الشافية التي لايمكن أن ينكرها جاحد ، وأصبح أمر عناية المسلمين بالتصوير والفنون الجميلة في صدر الاسلام حقيقة ناطقة تؤيدها المكتشفات الأثرية وان كانت أغفلتها النصوص التاريخية وشوهتها الاغراض الدينية ورحم الله ابن خلدون حينما قال : « كثيراً ماوقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها باشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . » فهذا هو الدستور الحقيقي الذي يجب أن يعمل به كل عالم أو باحث لتجنب الخطأ والله ولي التوفيق والسلام عليكم .